

غسان في المدينة



جمال شاهين



منشورات المكتبة الخاصة

جواهر القصص

الجواهر العشر

غسان
في
المدينة

جمال شاهين

١٩٩٧

قرية غسان

أصابت البأساء والسنة القرية ، ومضى الشتاء بعد الخريف وما أمطرت السماء على القرية قطرة ماء ، فأصاب الناس ضنك شديد ، وقلت ماء البئر التي يستعين بها أهل القرية في قضاء حاجاتهم من الطعام والشراب والغسل والنظافة للثياب والأبدان وغيرها من الأشياء .

وفصل الربيع يدنو من الرحيل فضاق الناس ذرعا بحالهم ، وبدأ الشباب القوي يرحل ويهاجر إلى العاصمة والمدن الكبيرة طمعا في سعة الرزق وتحسين الحال والمآل .

وكان في هذه القرية شاب يدعى "غسان" ، وهو وحيد والدته التي ترملت وتركت الزواج من بعل آخر لتقوم على رعاية وتربية ولدها الوحيد ، وقد ورثت هذه الزوجة عن بعلها غنيمات دون العشر ، فكانت تهتم بهن وترعاهن وتقتات من لبن الشياه وتصنع الجبن منه ، وتخرج الزبده وتصنع السمن منه ، ومضت على هذه الحال حتى كبر الصغير غسان وأصبح شابا يعول نفسه وأمه بضع سنين إلى أن ألمت البأساء والقحط بهذه القرية ، ورأى شباب القرية يرحلون من ضيق العيش نحو المدينة الكبيرة ، فوقع في نفسه هو الآخر الهجرة كأقرانه من الشباب لعله يجد في المدينة سعة من العيش ؛ ولكن كان يؤرقه بقاء أمه وحدها ، بعد أن قدمت له التضحيات الكبيرة ، وصبرت حتى نما واشتد عوده ، فهو بين أمرين صعبين ، البقاء في القرية مع الجوع وقسوة العيش أو الرحيل وترك أمه وحدها .

فهذه مشكلة غسان تلك الأيام ، وكلما مضى ليل وأقبل نهار يزداد قلقا واضطرابا ، فالطعام يقل والماء يقل والأغنام تهزل ويزداد ضعفها ، ولم يعد يرى في القرية إلا الكهول والشيوخ والعجائز والأطفال والمرضى وبعض الشباب ذوي اليسار وهم قلة ، فأمام هذه الظروف والأحوال والضغط النفسي ترجح لديه السفر والرحيل للمدينة الكبيرة ، فحدث أمه بقراره بعد أن عرض عليها همومه وضيقه من حياة القرية الهادئة الجائعة .

ولكن الأم لما سمعت كلامه خافت عليه وبينت له أن القليل من الناس من يغادر القرية ثم يعود إليها ، فأكثرهم يطيب له المقام في المدن ، فما يعود يفكر بالرجوع ، وذكرت له أنه وحيدها

فعندما يجد هناك الرفاهية وكثرة المال والأشياء ،قد ينساها ولا يعود يفكر بأمه ، فقلق غسان لمَ أبدته أمه من خوف وقلق عليه ومن نسيانه إياها

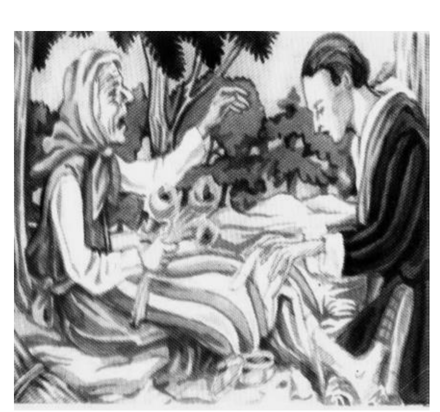


ثم ذكرت له أمه أسماء رجال هجروا القرية إلى المدينة وما عادوا إليها وظلوا فيها ، فأخذ هو الآخر يشتكي ويذكرها بضيق الحياة وقلة الأرزاق من ماء وعشب ، ووعدها بالعودة بعد الفرج ، وأنه لا يمكن أن ينسى أمه في خضم حياة المدينة الصاخبة ، ولقد تكرر الحوار بينهما في هذا الموضوع حتى لان قلبها واستسلمت لرحيله وغيابه عنها ، فأشارت عليه أن يمر على شيخ القرية وقيم مسجدها ، وأن يتزود بنصائحه فهو رجل كبير وخبر الحياة .

فزاره غسان حين صلاة العصر وحدثه بأمره وأمر أمه ، وأنها رخصت له بالسفر للمدينة ، واستنصحه نصحا خالصا لوجه الله العظيم ، فتمنى له الشيخ التوفيق والظفر والعودة ، وتعهد له الشيخ بتفقد أحوال أمه وغنماتها حتى ييسر الله له الرجوع ثم قال بعد ذلك : إني لك ناصح يا بني .. سأنصحك فعليك أولا بتقوى الله في شأنك كله ، وهذه ثلاث نصائح راعها واهتم بها وإذا التزمت بها نفعتك في دنياك .. إياك والكذب وقل الصدق وإن كان في الصدق عذابك هذه الأولى يا ولدي ..وأما الثانية فأحسن اختيار أصدقائك في المدينة ، وأما الثالثة والأخيرة فإياك ثم إياك والمال الخبيث ، فاعلم يقينا أن مصيره الزوال .. اذهب راشدا بعون الرحمن الرحيم

غسان القرية مشيا على الأقدام وعلى ظهره صرة قماش فيها يسير من الطعام ، وعلى عاتقه قربة صغيرة مملوءة بالماء ، ووجهته المدينة الكبيرة ، فكان يمر على قرية ويخرج من قرية حتى دخل غابة في طريقه ، فجلس تحت ظل شجرة فارهة الأغصان والأوراق ، فأكل من الزاد وشرب بعضا من الماء ، ثم غفت عيناه من كثرة المشي وقلة النوم ، ولما صحا من غفوته وفتح عينيه إذ به يرى رجلا جالسا بجواره ، فحياه بتحية الإسلام ، ورحب به وعرفه بنفسه مشجعا الرجل

أن يفصح عن هويته ووجهته ليطمئن قلبه له ، ولم يتكلم الرجل مما دفع غسان أن يقص عليه قصة هجره للقرية في سبيل الرزق وتحسين الحال ، وكان غسان يأمل عندما يصارح الرجل بدوافعه للهجرة والسفر أن يطمئن منه الرجل ويكشف له عن نفسه ، فما خرج منه إلا أن عرف أن اسمه عجيب ، وأنه مهاجر مثله لضيق ذات اليد وختم كلامه قائلا : اجعلني رفيقك يا غسان في هذه الرحلة وثق بي .



سر غسان بذلك ، وتابعا السير إلى العاصمة الكبيرة حتى كلا من المشي وشعرا بالجوع ، فاتخذا مكانا ملائما للقعود فقعدا يستريحان فيه ، فأخرج غسان ما تبقى معه من زاد فأكلاه وشربا ، واضطجع غسان طالبا للنوم ساعة من الزمان ، وما استيقظ إلا على أصوات خيل تصهل بجواره ، فقام فزعا وتطلع حوله فاحصا عن رفيقه عجيب حوله ، فلم يجده فعجب من الأمر في نفسه وقال لنفسه " أين ذهب ؟!" ، ورأى ثلاثة فرسان ينظرون إليه وسمع أحدهم يقول : أيها الشاب من أنت وماذا تفعل هنا ؟!

فاعتدل غسان جالسا ورد بوجل وخوف : أيها السادة بل من أنتم ؟! وماذا تريدون مني ؟

فصاح أحدهم : نحن نسألك .. قل لنا من أنت ؟!

فقال بخوف واضطراب : أنا اسمي غسان من تلك القرية راحل إلى المدينة الكبيرة للحاجة والشدة التي أصابت بلدتنا .

فقال آخر : أكان معك أحد أم كنت وحدك ؟

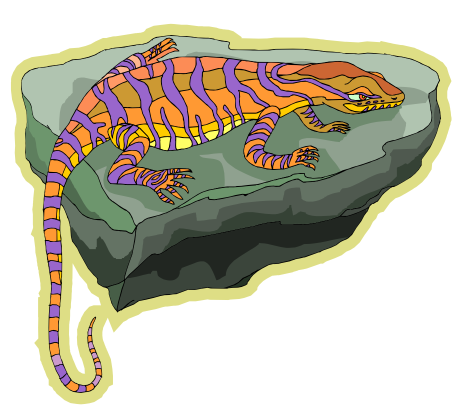
تلفت غسان حوله من جديد ؛ كأنه يبحث عن عجيب ثم قال بعدما نهره أحدهم : لا .. لم أرى أحدا وما زلت سائرا وحدي .

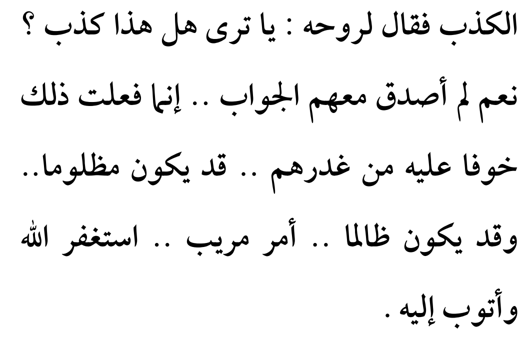
فصاح آخر : دعوه .. أسرعوا في مطاردته قبل أن يبتعد .

ولووا رؤوس خيلهم وانطلقوا مبتعدين عن غسان الذي نهض مسرعا وتابع السير وهو يخاطب روحه : لماذا هرب عجيب ؟! وهل هو الذي يبحثون عنه ؟ ولماذا يطاردونه ؟! كيف أحس بهم واختفى ؟! .. رفيقه عجيب لم يصارحه بشيء

يذكر .. كان قليل الكلام .. وبدأ عليه القلق منذ التقينا تحت تلك الشجرة .

وفجأة وهو مشغول الذهن في عجيب وهربه السريع ، تذكر نصيحة الشيخ وتحذيره من الكذب فقال لروحه : يا ترى هل هذا كذب ؟





نعم لم أصدق معهم الجواب .. إنما فعلت ذلك خوفا عليه من غدرهم .. قد يكون مظلوما.. وقد يكون ظالما .. أمر مريب .. استغفر الله وأتوب إليه .

وصل غسان المدينة الكبيرة مع اشتداد الظلام ، فوجد أبوابها مغلقة فعليه إذن المبيت في الخلاء حتى يبزغ النهار فيدخلها ، فمشى نحو أشجار رآها يبحث عن موضع يرقد فيه للفجر ، وبينما هو مضجع بين بعض الأشجار القصيرة سمع أصواتا تقترب منه ، فانزعج منهم وخشي على نفسه ، وسمع أحدهم يقول : كيف سنجده في هذه المدينة الكبيرة ؟! .. فيها أجناس شتى من العرب والأعراب والعجم والروم والحبش والهنود والترك وغيرهم .

فسمع الثاني يقول : اللعين زياد .. هل يكون صدقنا الحديث ؟ وهل يعقل أنه أعطى العقد للغريب ؟ كيف اطمئن له ؟ أنا لا أصدق أنه فعل ذلك ؟!

فقال الثالث : ولكن الشاب المهاجر عندما التقيناه أنكر رؤيته لزياد .. فهذا يدل على اتفاقهما .

فعاد الأول يقول : سندخل المدينة ـ إن شاء الله ـ صباحا .. ونبحث عنه في كل الخانات والفنادق ولابد أن نجده ولو أخفى نفسه تحت ماء البحر

فقال الثاني : وزياد سيبقى رهين الحبس ولن يتركه الأمير حتى يعود العقد .

عندما سمع غسان هذا الكلام أدرك أن هؤلاء القوم هم الذين التقاهم في الطريق وسألوه عن عجيب وهؤلاء يسمونه زيادا .. وفهم من كلامهم أن زيادا لص قد سرق عقدا من أميرهم واتهمه به ، فهم يبحثون عنه آملين أن يكون العقد المسروق معه .. يا الله ! .. ارحمني يا مولاي إنها ورطة كبيرة .. هل يوجد معي عقد ؟! .. هل اكشف لهم نفسي وأنكر لهم معرفتي بالعقد المزعوم ؟ .. لا .. لن يصدقوني .. لقد كذبت عليهم ، وأنكرت معرفتي بصاحبهم .. المحتال ورطني في جريمته .. هذا جزاء إحساني إليه واقتسامي طعامي معه ؟! .. يا ليتني لم أكذب القوم ولكني خفت عليه .. آه يا أماه! .. هل أنت راضية عني ؟؟ اللهم قني شر خلقك

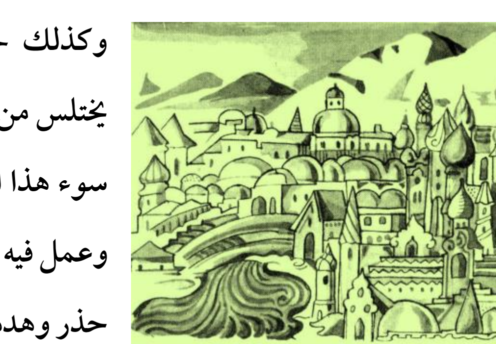
ومضت الليلة وغسان لم تنم عيناه من التفكير بالفرسان الثلاثة والعقد المسروق وزياد .

لما بزغ الفجر هرول الفرسان مسرعين نحو باب المدينة ، وسار غسان لباب آخر ، وصمم أن لا ينام في فندق أو خان حتى لا يقع في قبضة هؤلاء ويسوقوه لأميرهم كما يزعمون دخل المدينة من باب غير الذي دخله الفرسان ، وأسرع إلى مسجد يستريح فيه من وعثاء السفر ثم ليدبر أمره ، فصلى الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء في رحاب بيت من بيوت الله ، وبعد العشاء غادر المسجد حيث أسواق المدينة للفرجة والبحث عن عمل ينطلق منه في حياة المدينة ، فتفرج وتعجب من عظمة المدينة وكثرة ناسها ثم عرض نفسه على التجار والصناع ، وكان يرى أن الليل استر له في البحث وأخفى .

ثم عاد للمبيت في المسجد كما اتفق مع قيم المسجد ، فلما علم قيم المسجد أن غسان غريب لا مأوى له ولا طعام أذن له بالمبيت في جوف المسجد ، بعد أن دله على مسجد الفقراء والغرباء ، فهناك كل يوم يوزعون الطعام والشراب على الضعفاء والفقراء وأبناء السبيل على نفقة أم السلطان .

فلبث غسان يتردد يوميا على مسجد الفقراء ليقتات ثم يأوي في الليل عند قيم المسجد حتى

وجد عملا عند الصناع في سوق الحدادين ، فقبل به المعلم أيوب عاملا جديدا في مصنعه بقوت يومه ومنامه وله درهم واحد كل سبع أيام ، فرضي غسان بذلك حتى يبتعد عن خطر الفرسان الثلاثة الذين يبحثون عليه ، ويتعلم صنعة تساعده على العيش في هذه العاصمة ، واختار أن يسكن مع زميل اسمه نعسان ، وبعد حين أدرك غسان أنه في سوق كبير للحدادين وأنه واحد من ضمن عشرة يعملون عند المعلم أيوب ، وكلهم على شاكلته من الفقراء والأيتام والغرباء ، وظهر له مع الأيام أن الحداد الكبير يستغل غربتهم وحاجتهم وبعدهم عن أهليهم ، وشعر بقسوة العمل وأن النهار كله يمضي بين مطارق الحدادين ونيرانهم من حين شروق الشمس إلى غروبها ، وكان العمل مرهقا وهو لم يعتاد على مثل هذا الارتباط المتواصل في مكان واحد ؛ ولكنه رضي وقنع وصبر فإن لم يكن ذلك طواعية فعلى مضض ووهن حتى يتيسر له عملا آخر وكثيرا ما كان يحزن ويغتم ويشعر بالأسف والحزن لفراق القرية والأم الغالية .



وكذلك لحظ غسان من مجاورته لنعسان أنه يختلس من صندوق مال المعلم أيوب ، فبين له سوء هذا العمل وقبحه ، وأن هذا مال خبيث وعمل فيه إثم كبير ، فما كان من النعسان إلا أن حذر وهدد غسان من فتح فمه بكلمة وإلا اتهمه بأنه شريكه في السرقة والاختلاس من صندوق المعلم ، فتألم غسان من صديقه الجديد وخيبة أمله في هذا الشاب ، فسكت على مضض وخوفا من التهمة ، ولقد تذكر أمام هذا الموقف نصائح الشيخ قبل سفره " إياك والكذب واحذر الصديق السيء واحذر المال الخبيث " ..

فالتزم غسان أمام ضعفه الصمت .

ذات ظهيرة جمع المعلم أيوب جميع أفراد دكانه وقال مخاطبا لهم : يا رجال.. جمعتكم لأطلعكم على أمر مهم .

وحملقت به العيون العشرون المجتمعين أمامه وهم في غاية العجب لهذا الاجتماع ؛ ولكن غسان بحاسته شعر أن الأمر متعلق بسرقة ونقص أموال صندوق المعلم ، فاختلس نظرة نحو النعسان وكأن النعسان كان ينتظر تلك النظرة الخاطفة فهدده وحذره برموش عينيه وبريقهما بأن يتفوه بلفظ واحد ، فأخلد إلى الأرض مطرقا بعينيه، ولما هدأت همهمات ونظرات الدهشة قال المعلم بصوت رنان وبغضب حاد : يا رجال .. يؤسفني أن أقول أن بينكم لص أو لصوص ..لقد اكتشفت أن الصندوق ينـقص كل مرة أحصيه درهما أو درهمين فلم أعر الأمر اهتماما كبيرا وغضضت الطرف .. أما هذه المرة فقد أخذ الخائن عشرة دراهم ..

حصلت بين القوم همهمات ونظرات واستنكارات وتابع المعلم حديثة قائلا : فمن يعلم شيئا فليتكلم ؟ .. وإن اعترف الخائن عفوت عنه وليتب إلى ربه .. تكلموا خيم على القوم الصمت والسكون ، فصرخ المعلم وزعق ولكن لا أحد تفوه بكلمة ، العيون هي التي تتحدث ثم قال : حسنا يا شباب .. سأهتم بالأمر من الآن فصاعدا وليحذرني اللص .. من أمسكت به سأدفعه لشرطة الوالي يقتصون منه .. فالأفضل أن يقر ويعترف ؛ لأنني إذا قبضت عليه بعد انفضاض هذا المجلس فلن ارحمه .

وأصر العمال على التزام السكوت ، وكلهم في استغراب لهذه الحادثة ، فعندئذ صاح معلم الحدادين والشرر يتطاير من عينيه الصغيرتين : انصرفوا إلى أعمالكم .. الأيام بيننا .

عندما اجتمع غسان والنعسان في المسكن عاتب غسان النعسان بشدة وقسوة وصاح فيه : لقد ورطتني معك أيها اللص .. ماذا افعل ؟! .. لقد ألزمتني الكذب والصمت على جرمك .

فأجابه النعسان بالصراخ : أرجوك اصمت .. إنني آخذ بعض حقنا أيها الولد الغرير .. إنه رجل ظالم يأكل حقنا .

فصاح غسان : اتركه .. لا تعمل لديه اشتغل عند غيره .. اعمل عند معلم لا يأكل حقك ..
أما السرقة فلا ترفع ظلما .. فقد ترسل بك لمولانا الوالي فتفقد كفك اليمنى .

وأمضيا وقتا في القتال والصراخ وختمه غسان قائلا : سوف أترك أنا الدكان واشتغل في عمل آخر أو عند معلم آخر سوف أتخلص منك ومن جوارك .

فصاح النعسان قائلا : لا تكن غبيا .. ولا تتعجل بالهرب أيها الغرير .. حتى لا يشك فيك ويظن أنك السارق .

فصاح غسان غضبا : لست سارقا .. إنما أنت السارق .

فقال متظاهرا بالشفقة على جاره : يا ولد ! .. إذا تركت العمل الآن لن يصدق أيوب أنك بريء .. وإذا قلت له عني سيقول لك لماذا لم تتكلم لماذا لم تخبره ؟ .. وسأقول أنا إنك شريكي فاصبر بضعة شهور ثم اترك العمل مع المعلم أيوب .

فقال غسان بغضب : نعم .. معك حق في شركتي لك ، أنا شريكك لأنني صمتت ، أنا مثلك مجرم .. آه يا أمي! .. عسى أن تكوني راضية عليّ ، رحم الله الشيخ فلقد نصحني بأن لا أكذب وأن أقل الصدق ولو كان مرا ، وأن أحسن اختيار الأصدقاء والبعد عن المال الخبيث .

وخرج من الغرفة غاضبا وهبط إلى وسط المدينة ، ولما تعبت قدماه جلس قرب النهر العظيم ، ينظر في أحواله ويتفكر بهذا النهر وعظمة الخالق سبحانه ، ثم يعود للتفكير بما هو فيه من مشاكل وواقع وكيف يتخلص من النعسان والمعلم أيوب بأمان وسلام ؟..وبينما هو غارق بأفكاره وأحلامه إذ سمع صوتا قريبا منه يصيح بفرح : أليس هذا هو الفتى الذي نبحث عنه منذر شهور ؟!

فأجابه الآخر : إي والله إنه هو .. أخيرا وجدناه .

وأحاطوا به وهو ينظر إليهم بذهول واستسلام وقد عرفهم فقال : الفرسان الثلاثة !!! نعم أنا غسان الذي التقى بكم في الغابة منذ شهور مضت .. أنا رفيق زياد الذي تبحثون عنه .

فصاح أحدهم : أين العقد إذن أيها الفتى ؟

وقال آخر : ولماذا أنكرت معرفتك بزياد وتظاهرت بالخوف عندما اجتمعنا بالغابة ؟

وقال الثالث : فالأفضل أن ترافقنا للأمير أسامة أمير مدينة الأمان وبكل هدوء .

فقال غسان مستسلما : افعلوا بي ما شئتم أنا رهن إشارتكم .

فقادوه إلى الخان الذين ينزلون فيه ، وفي الصباح انطلقوا به إلى الأمير أسامة ، ولما مثل بين يدي الأمير وحاشيته ، روى له غسان حكايته كلها منذ خروجه من القرية حتى وقع بين أيدي رجاله فلما أنهى كلامه قال الأمير : إذن أنت لا تعرف زيادا إنما كان لقاؤكما لقاء عابرا .. هاتوا زيادا الذي أتعبنا كل هذه الأشهر .

وأحضر العسكر زيادا من سجنه مكبلا بالقيود ، ولما شاهد غسان عرفه فورا فأصابته رجفة رآها الجميع وهمس لنفسه : لقد قبضوا عليه سريعا .. انكشف الأمر يا زياد ولا ينجيك الآن إلا الصدق والحق .

ولم يخرج من أفكاره إلا على صوت الأمير يقول له : هذا ـ وأشار لغسان ـ رفيقك يا زياد ؟

فنظر زياد إليه بعمق ورد قائلا : لا أدري .. قد يكون هو .

فصاح غسان : أنا رفيقك في الغابة وأمضينا وقتا طويلا معا وأكلت من زادي وتركتني خفية وتسميت لي بعجيب .

فغمم زياد بكلمات غير مفهومة ، فقال الأمير : أين العقد يا زياد ؟!

فصاح زياد واستغاث والدموع في عينيه : الأمان .. الأمان يا مولاي ! .. سأتكلم

قال الأمير بهدوء : تكلم فكلنا يسمع ما تريد أن تعترف به .

اعترف زياد بسرقته لعقد الأميرة الصغيرة " قوته " ابنة الأمير أسامة ، وأن نفسه سولت له بالسوء ، وهرب به والتقى بغسان في طريقه ، وسمع منه قصته وأظهر له أنه مثله مسافر

للمدينة للبحث عن حياة أفضل ، ولما شعر بفرسان الأمير هرب واختفى ؛ ولكنهم أدركوه بعد حين ، ولما عادوا به لمدينة الأمان ادعى بأنه أعطى العقد لشريكه وصاحبه غسان على أمل أن لا يعثروا عليه في المدينة ويطول بحثهم عنه حتى يتمكن من الهرب من السجن في يوم من الأيام لينعم بالمال واللؤلؤ ، ثم دلهم على مكان إخفاء العقد المسروق ، وأمر الأمير برميه في السجن حتى ينظر في أمره قاضي المدينة ، وأمر خازنه بدفع مائة دينار لغسان ، وأن يرافقه بعض الفرسان إلى المدينة الكبيرة ، وفرح غسان بجائزة الأمير وذهب برفقة الفرسان إلى المعلم أيوب وكشف له أمر النعسان ، فوجده حانقا عليه متهما إياه بالسرقة لهربه واختفائه المفاجئ فبحثوا عن النعسان فوجدوه قد اختفى في زحام المدينة ، فتيقن أيوب من براءة غسان من شهادة الفرسان وهرب النعسان ، ثم قام غسان بدفع المبلغ الذي أخذه النعسان على أن يسامحهم ويصفح عن النعسان إن عاد ثانية ، فسر أيوب بالمال وكذلك الحدادون العاملون ووعده خيرا ومكث غسان في المدينة أياما أخرى اشترى فيها ثيابا وهدايا وحمارا ، وكر عائدا إلى قريته ناشدا الهدوء والسكينة والسلام في قريته وبلدته مع أمه وغنماتها ، ولما دخل القرية وجد أن الأمطار قد عمت وطمت الديار منذ أيام ، والبئر زاد ماؤها ، والحيوانات أخذت نصيبها ، والكل بخير وأمان.





منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

جواهر القصص

جمال شاهين

غسان في المدينة

غسان في المدينة

الجواهر العشر

غسان في المدينة

مكر نديم

نبوءة سيف

المدينة البيضاء

عقيل والصياد

أحلام الأولاد

ربيعة والسلطان

اسعد واسود

ثلاثة أبناء

الصياد البحري هارون

